الهُويّة الجمعية في سرديات جمعة اللامي
الهُويّة في سرديات جمعة اللامي
- دراسة في ضوء التحليل الثقافي -

أ.د. حسين حمزة الجبوري **إحسان جابر شبيب البخاتي**
الجامعة المستنصرية / كلية التربية الأساسية

المقدمة

إن الهوية -كمصطلح تداولي- هو وعاء الضمير الجمعي بما يشمله من قيم وعادات ومقومات تكيف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود، فهي الخصوصية والذاتية على السواء وهي ثقافة الفرد ولغته وعقيدته وحضارته وتاريخه .

لذا تعد الهوية حصيلة لمجموعة من العلاقات والدلالات التي يستقي منها الفرد معنى لقيمته، ويضع لنفسه في ضوئها نظاما يشكل في إطاره هويته،إذ تتوافر له من جراء ذلك إمكانية تحديد ذاته داخل الوسط السوسيوثقافي بوصفه نظاما مرجعيا على المستوى السلوكي.

ولقد مثلت الهوية الجمعية قيمة مهمة في سرديات (اللامي)، فهو ينطلق بهذا من شعوره بالانتماء إلى أرومة عربية وجماعة يمتد تاريخها بامتداد الخليقة، وثقافتها هي الثقافة العربية والإسلامية، وهذه منحتها الحياة والبقاء على امتداد الزمن، على الرغم مما واجهته من منعطفات خطيرة وكبيرة، وأزمات مختلفة، وظهرت هذه الهوية في سرديات (اللامي) في أنماط ثلاثة: هي (الوطنية والمحلية والقومية).

إنّ تناولنا لموضوعات الهوية الجمعية في سرديات اللامي، جاء بحسب الأهمية وبحسب الرؤية التي يُريد الكاتب ايصالها للمتلقي, فاللامي وان ظهرت في سردياته الهوية الجمعية بأشكالها المختلفة، والتأكيد على الملامح المحلية وخصوصيات الجماعة إلا أنه كان يطّوعها في رؤية وطنية شاملة، فضلا عن رؤيته الإنسانية التي يسعى فيها لتجاوز الحدود المصطنعة والذوبان في فطرة الإنسان، والسعي إلى رؤية هوية إنسانية شاملة وكونية، تحفظ للجماعات خصوصيتها، كما أنها تحترم خصوصية الآخر.

من الصور الواضحة للهوية بأنها الشفرة التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يعرف نفسه وعلاقته بالجماعة التي ينتمي إليها، وهي شفرة تتجمع عناصرها العرقية على مدار تاريخ الجماعة، وتراثها الإبداعي وطابع حياتها،((وهذا يفترض الإيمان بوجود تجمعات تسمّى "جماعات" تُعتَبر أنظمة مواقع وأسماء محددة مسبقا للأفراد، تعيد إنتاج المماثل عبر الأجيال، ووفق هذا التصور، لكل فرد انتماء يعتبر رئيسيا، بوصفه عضوا في "جماعته"، ومنزلة فريدة بوصفه يمثل موقعا في هذه الجماعة))[1]

وربما لا تحمل كلمة (جماعة) العربية بالضرورة الدلالات الدقيقة، فالمقصود هو جماعة أوّلانية، وشائجية يولد الإنسان فيها، ويُعرَّف بوصفه فردا منها، وهكذا يتعرف على جزءٍ كبيرٍ من وظائفه، في مراحل حياته المشتقة من هذه الجماعة التي يحملها في داخله وتحمله في داخلها، والأمر الأهم في تعريفها التاريخي يتمثل في أن الإنسان عضواً فيها وليس فردا مستقلا بقراراته الذاتية، إذ يُعد الانتماء للجماعة هو المكون الأساسي في شخصيته[2]. فنحن لا يمكن أن نفهم زخم الهوية الإنسانية بآلية فهم أحادية إنما بطريقة أخرى جديرة في ((فهم وتأويل، المشاعر إلى جانب فهم الروابط مع الآخرين والماضي والمستقبل والمطلق))[3]، ولذلك يشتمل تعريف الهوية الجمعية على: إيجاد قيم ومعايير مشتركة لأعضاء الجماعة، وصياغة علاقتهم بتقاليد الماضي، والقدرة على التجنيد الجماعي من أجل إنجاز أهداف مشتركة، وتعبيرات تضامن بين أعضاء الجماعة وأشياء أخرى، وهذا ما يرافق بروز تعريفات جديدة لـــ(نحن)، فمعظم البشر الحاليين يعدون هويتهم الرئيسة هي لغتهم، وثقافتهم، وأمتهم أو أثنيتهم، ووطنهم، وهم مستعدون للدفاع عنها بشتى الوسائل، لذا يبقى الشكل "الهوياتي" المسيطر هو الشكل الذي يجمع (نحن) محددة بالموقع أو المكان، منظمة في دولة شرعية أو في مجموعة ثقافية (أثنية أو قومية أو إقليمية) معترف بها رسميا بالاستناد إلى أشكال مختلفة واقعية وتاريخية وأسطورية تسوغ ترسّخها الجمعي من خلال اختراع تاريخ عريق لها و(أنا) تجري مماثلتها بمجموعتها المحلية وبثقافتها[4].

الهوية الوطنية

إن ملامح الوطن لم تكن آنية، ولا هي اختراع يتشكّل بين الحين والآخر، ولا هي محتوى فارغ، فهو تعاقد اجتماعي وجغرافي أزلي تحدد ملامحه البيئية، وعوامل تاريخية تعطيه القيمة المعنوية، وعوامل ثقافية مشتركة تأخذ قيمتها العليا من حضارة غارقة في

الزمن، فضلا عن أفراد يؤثرون ويتأثرون بتلك العوامل، تلك العوامل كلها تسهم مجتمعة على تشكيل مفهوم الوطن، لذا نشأت الهوية العراقية بصورة طبيعية في قلب كل عراقي، فهي ليست ظاهرة مختلفة[5]، فقد توافر للعراق، نهران عظيمان شكلا بيئة لجذب السكان منذ القدم، وتاريخ حافل بالحيوية بتناقضاته واشكالياته كلها، وحضارة تمتد بامتداد التاريخ فسومر وبابل وأكد وأشور، شكلت حضارة منحت للزمن حيويته وهيأت لأبنائه سرَّ الديمومة والبقاء.

لقد شكل إعلان الدولة العراقية في عام 1921م، تأسيسا لنظام سياسي ينظم العلاقة بين السلطة والشعب، هذا الإعلان وأن أسس لدولة حديثة، ولكنه لم يفلح في تأسيس هوية وطنية جامعة لظهور سمتين الأولى القمع والأخرى الإقصاء، فقد عملت الأنظمة المتعاقبة على السلطة على إهمال الهويات الفرعية والمحلية، بل وترجيح هويات محلية على أخرى، وجعلها هويات أصيلة مهيمنة على الهويات الأخرى، الأمر الذي غذى ذلك النزوع إلى الهويات المحلية بوصفها نوعا من الدفاع والحفاظ على الخصوصيات المهددة أو المستلبة، وما حصل في العراق من اضطرابات وانقلابات وحروب داخلية وخارجية، ما كانت إلا نتيجة تلك السياسات، وغياب ثقافة الوعي الوطني المشترك.

تلونت الهوية الوطنية في سرديات (اللامي)، بألوان الوطن التي ما لبثت أن تنتقل من العتمة حتى تعود لعتمة اكبر وأوسع، وذلك بسبب الأنظمة السياسية التي تولت الحكم منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة، وما رافق ذلك من عوامل داخلية وخارجية، ولكن يبقى الوطن يحفل بالمكانة التي يضحى من أجلها بالأرواح والدماء، فالوطن أكبر من الخطوب كلها.

((– سيظل الوطن أكبر من كل شيء، قال عزيز .

– الوطن ..؟ الوطن الغائم .. الوطن غير المحدد؟

– لا ، الوطن المحدد . الواضح كل الوضوح. وهذه هي الحقيقة.

– حقيقة الوطن الجلاد الذي يتحول إلى وطن حبيب.

– الوطن الحبيب ، أما الجلاد فهذه النفس التي لا يستطيع بعضنا مجاهدتها))[6].

وفي إشارته إلى النفس، يظهر أن هناك نسقا من القمع في تجربة الإنسان العراقي، وهويته، فالوطن ليس هو المذنب في تجريد الأبناء من حقوقهم ورغبتهم في تحقيق الحرية والعدالة، إنما هو سلوك السلطة، وهذا النسق يسعى للسيطرة ومصادرة حقوق الآخرين،

فالوطن يفترض أن يمثل حالة أبويه شاملة، مقدسة تمنح الأفراد الشعور بالوجود وتحقيق الذات، وتمنحه القدرة على المواجهة في الحفاظ على الكرامة، والتعريف بينهم وبين الآخر.

((ومَنذُ حقب، بَل منذ دُهورٍ،
بَل قَبلَ العَدمَ، كُنتُ أُنادي على الخَلق :
لَيسَ بَعدَ الله
إلاّ العراق))[7].

لذلك يمثّل الانتماء إلى الوطن، شرف لا يعدله شرف آخر، فالموجودات كلها تنطق باسم العراق، التاريخ ينطق، والجغرافية تنطق، والحضارة تنطق، فهو يمثل الجمال بالنسبة لأبنائه.

((اتشرف إذ اعلنُ : أنا عراقي .
لأن الكلامَ بينَ يديك، ينادي : عِراق
والفُرات يصطخبُ : عِراق
وسومر تزغرد : عِراق
وها هو الجمالُ، يا عِراقٌ، بعضُ جمالهِ
من جَمالِ العِراق))[8].

كأنه يردد قصيدة السياب الذي كان يعاني المرض والاغتراب ولكن الوطن يبقى بوصلته، فقد مرّ العراق منذ تأسيس دولته الحديثة في عشرينيات القرن الماضي، بأحداث داخلية فضلا عن أخرى خارجية، تمثلت الأحداث الداخلية بانعطافات كبيرة في تاريخ العراق الحديث، لعل أبرزها العنف المتبادل بين السلطة والمجتمع ممثلا بأحزابه واثنياته وقومياته وطوائفه، وذلك لعدم قدرة الأنظمة المتعاقبة من بناء رؤية مشتركة لأبناء الوطن يشعر فيها الجميع بأنهم متساوون بالحقوق والواجبات، هذا الأمر فرض على الساحة الوطنية الاضطراب، والتلون بالوان العنف وكبت الحريات ومصادرة الحقوق، فالنظرة المثالية للوطن ليست واقعية دائما، بما يقدمه المشهد الوطني من معطيات ممثلة بالانقلابات العسكرية، والقمع الممنهج، وهيمنة الرأي الواحد والمكوّن الواحد، والحزب الواحد، ونفي كل المخالفين لهم، هذه العتمة لم تمنع الحلم بوطن يتسع لأبنائه كلهم، يحنّو عليهم، ويحمل تطلعاتهم.

((قال أحدنا، الحالم دوما بالثورة : لا بد من تغيير هذا العالم، كما هو العالم الذي في حلم جيفارا.

قال الثاني، الوسيم المزهو بشبابه : أحلم بأن أرسم جدارية على امتداد هذا الشارع . وأشار بذراعه إلى شارع " أبو نؤاس".

عند ذلك، كنت أردد في سريّ وصامتا :

حلمت بموطني وبحفل بهيج متألق

حيث الصخب والطرب هما كل شيء

وحيث السيدات الفاتنات المطوقات بالورود

مستغرقات في حديث عذب مضيء))[9].

لا تنقطع الصلة بالوطن حتى لو كان من خلال حلم، فذلك يعطي الأمل في الحياة الكريمة، ويجدد العهد مع الأرض والسماء.

ومع ذلك تعاني الهوية الثقافية العراقية من استلاب في وجهة نظر الشخصية المثقفة، والمناضلة، وهذا يمكن ملاحظته في الإشارة إلى (جيفارا) في حب الوطن، والمكان حب فطري، وبدائي منذ نشأة الإنسان إلا إن الهوية السياسية وتبعا لهذه الثقافة التي تعاني من إشكالات مختلفة، ومنها التبعية حتى في العواطف البدائية التي هي حب الوطن وكأنهم لا يعرفون الوطن إلا من خلال (ماركس، ولينين، وستالين، وجيفارا) في حين حب الوطن والمكان حب بدائي فطري وهذه سمة في الهوية الثقافية التي تعاني من ارتباك واستلاب لفكر آخر، وإقصاء للخصوصية ولهذا كانت مشاكل الدين، والوطن، والأمة والمواطنة في الهوية الثقافية العراقية، ومازالت في حب أطراف طائفية، أو قومية على حساب المواطنة، والمشاركة مع الآخر من للوطن نفسه.

بعد ذلك يأخذنا (اللامي) في ثيمة جديدة هي الهوية الوطنية بصورتها الجلية، إنّ ابرز ملامح الهوية الوطنية تتجلى في الحفاظ على الوطن من الغرباء والمحتلين، فتشخيص اطماع الأعداء، ووصفهم بالمحتلين يعبر عن هوية وطنية فهي ترفض الأجنبي الذي يريد استلاب الوطن والمواطن، ولاسيما اذا جاءت بعد نفي عن الوطن وملاحقة من السلطات الجائرة.

إن معرفة الاحتلال لم تتشكل اليوم، إذ هي تسري بدماء البشر، فالفطرة السليمة ترفض الغرباء كما أنها ترفض تسليم مقدرات الشعوب بيد الإمبرياليين القادمين من خلف الحدود،

فالأوطان تمتد بحضارتها وكينونتها لعمق التاريخ، ولعل الأدب ما بعد الكونيالي يكشف تجربة الشعوب في الدفاع عن حقوقها الوطنية والإنسانية وهذا ما كان تشير إليه سرديات اللامي وما تمثله.

إن ثيمة (الاحتلال) ظهرت لنا في رواية (عيون زينب)، وذلك بحكم امتداد كتابتها لعام 2009، الأمر الذي يعني أنها جاءت لتغطي زمنا مهما من تاريخ العراق الحديث، شهد حربا مع ايران، وهي ما غابت عن المشهد الروائي عند اللامي، وحربا مع امريكا وحلفائها، وجاءت نتيجة الأخطاء التي ارتكبها النظام في العراق وغطرسة قيادته، واحتلال الكويت، هذه الحرب بدأت بحصار قاسٍ طويل، وانتهت باحتلال العراق في عام 2003، اللامي لم يتعرض إلى الجزئيات في سرده، ولكنه حمل همَّ الوطن بأكمله، وما تعرض له من ويلات الحرب وقمع الاحتلال.

لقد ألقت الحرب بويلاتها على الشعب وكان اثر الحرب واضحا من خلال استعمال السلاح المشروع وغير المشروع، ومنها استعمال القنابل المشعة باليورانيوم التي غطت الكثير من أراضي الوطن وأصابت ابناءه بمختلف الأمراض، فضلا عن ما تعانيه البلاد أصلا من ظلم النظام وهيمنته على رقاب الناس.

((البلاد رايات سود،

أقمار وأطمار،

أسوار وزنازين،

مريم المشبعة باليورانيوم))[10].

ثم تعبّر(مريم) عن انتمائها الوطني، وهويتها العراقية، التي لم تتأثر على الرغم مما تعرضت إليه من أشعة اليورانيوم المدمرة، وكان المفتشون يمثلون الوجه الآخر لأجندة الاحتلال، والأداة التي تستخدمها الدول الكبرى في سلب حقوق الآخرين وفرض هيمنتهم عليها، إذ تقول :

((أنا مريم العراقية،

صَيَّرتني شمسُ السماوة، غزالة يطاردها اليورانيوم ومفتشو الأمم المتحدة،

لكنني ما زلت سوداء مثل شمس بلادي.

يا أبَه:

مزّق كفنك، واتبع شمس العراق ,

التي مثل نوري))[11].

وهنا يعقد (اللامي) صلة مشابهة بين لون الشمس وبين وجه (مريم) وجعل السواد وجه الشبه بينهما، فاللون هوية عرقية عراقية تحمل تحت طياتها تاريخا من الوعي الثقافي والاجتماعي، فالعراق أرض السواد، الغني في تاريخه كله، وهذا الثراء مصدر أطماع المحتل الأجنبي، وكأنه يخبرنا بان شمس العراق قد طبعت على أبناء هذا الوطن صفتهم الخاصة التي تميزهم عن باقي الشعوب، لذلك تحث أباها على إتباع شمس العراق. إنّ الحصار الذي فُرض على العراق له أثار كبيرة في سلوك الإنسان، والهوية الثقافية والسياسية، من العنف إلى التملق إلى اهتزاز الوعي الوطني فقد أضاف معاناة كبيرة على الشعب العراقي وسيرته وأنساقه الاجتماعية والثقافية والعلمية، إذ أن الدول الكبرى المهيمنة على القرارات الأممية، لا تهتم بتطلعات الشعوب بقدر ما تتطلع لنفوذها ومصالحها الخاصة حتى لو كان ثمن ذلك إبادة شعب بأكمله.

((أيها الحكيم أحيقار:

من يحاصر حصاري، بعدما اطبقوا حصارهم على بابل وميسان

من العراق..

إلى العراق؟))[12].

ثم ينطلق (اللامي) في بيان فلسفة الاحتلال، لاسيما احتلال العراق، الغني بموارده وحضاراته، فغايات الاحتلال أكبر من شعاراته الظاهرة التي لا تنطلي على عقول الشعب وفعالياته، لقد مثّلت منطقة الشرق الأوسط محط اهتمام لدى القوى الاستعمارية الكبرى لما تمتلك تلك المنطقة من المقومات الحضارية والاقتصادية، ولاسيما العراق منها، فكانت الدراسات تشير إلى أطماع الدول الكبرى في السيطرة على المنطقة برمتها، وهذا ما حصل من خلال تشكيل تحالف دولي هدفه احتلال العراق:

((.... أقول إنني تحت عصر ذلك اليوم، حين كنت أراجع قراطيس أحوال هؤلاء الأغراب الذين سيبنون معْراجَ الحَفَّارَةِ، وأرسلوا أساساته في عمق تلك الأرض الرخوة، فجعلوا حفْيَظ يجفل ويخرج من مكمنة السومري الحصين، رأيت الطيور الحديدية العملاقة في كبد السماء. والرماح النارية العابرة للبلدان والأمصار فوق ذؤابات الجبال والغابات والصحارى. والفرقاطات المعبّأة بالجند من كل الملل والنّحل، تتجه من بحار

الدنيا وشطوطها نحو بلاد اليشن, وكأن هدفها هو "إيشان أبو ذهب". في خريف سنة 3003 ميلادي"))[13].

يقدم لنا اللامي في قصة (هجائية 9 نيسان 2003) معالجة لأسباب احتلال العراق، ويخرجها من حيزها الضيق الزماني والمكاني، ليحيلها إلى حالة الانقسام والتشرذم التي أصابت الأمة منذ أربعة عشر قرنا.

((ستحتفلون على طريقتكم العربية التقليدية بذكرى احتلال" أيشان أبو الذهب"، كما احتفلتم، وكما ستحتفلون أيضا، بكل إخفاق من إخفاقاتكم، وكل هزيمة من هزائمكم، وبكل نصر-أو ربع نصر- منذ أربعة عشر قرنا، بكلام كثير، وطحن من دون طحين، وعجيج من دون تراب))[14].

ثم يطلق مجموعة من الأسئلة، يريد من خلالها استنهاض الذاكرة فضلا عن مراجعة حقيقية ومسؤولة لتاريخ الأنظمة العربية الحديثة المنقسمة والخانعة والمنهزمة، وهو يسرد مجموعة من الحروب التي خسرها العرب، وتسببت باحتلال الكثير من الأراضي العربية:

((هل سقط " أيشان أبو الذهب" يوم 9 نيسان 2003 ميلادية بوقوف دبابتين أمريكيتين عند حافة اليابسة البعيدة عنه لدقائق معدودات، أم إن هذه الكارثة الضخمة، هي تتويج لمجموعة من الكوارث توالت منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة؟

وهل سقط أيشاننا يوم دخل الجنرال "مود"، عاصمة بني العباس سنة 1917 ميلادية؟ أو حين وضع الجنرال "غورو" حذاءه العسكري على قبر صلاح الدين الأيوبي؟ أو ساعة احتُلَّت القدس، وضُمت الجولان؟ أو حين دخل الجنرال شارون بيروت ونصّب من يريد رئيسا على لبنان؟أم إن إيشان أبو الذهب سقط، لحظة احتقرتم العقل، وساعة قدّستم الأصنام، ويوم قَتَل الناسُ الناسَ على الهوية، وحين اعتبرتم الناس كفرة يستحقون القتل، بوجود الفرقة الناجية الوحيدة؟))[15].

إن احتلال العراق لم يكن شأنا خاصا بالعراقيين، إنما هو شأن العالم العربي والإسلامي بشعوبه وأنظمته السياسية والاجتماعية والدينية، وعدم قدرة تلك الأنظمة على بناء مجتمع متكامل ومستقل فكريا واجتماعيا وسياسيا، كذلك فشل التيارات السياسية والدينية والاجتماعية من تقديم رؤية فكرية سليمة لجميع شرائح المجتمع سواء أكانت المثقفة منها أم العادية، الأمر الذي خلق هوة كبيرة بين الشعارات وبين التطبيق:

((لا حرب علينا في ديارنا أو خارجها، إلا والنفطتار سببها الأول والأخير.تْفووو.!))[16].

ويحدد لنا النص أسباب رغبة الدول الكبرى في استعمار البلاد العربية سواء أكان احتلالا مباشرا أم غير مباشر، وذلك لتوافر الثروات الهائلة في هذه البلاد وفي مقدمتها النفط، وكذلك الموقع الاستراتيجي لها بين دول العالم، كل هذه الأسباب وغيرها أدت إلى الاحتلال، بعد أن حدد أهداف الاحتلال الحقيقية لوطنه، جاء ليضفي عليه صفة (الشمر) وهو اسم استعاره من التاريخ، ليبين همجية ووحشية الاحتلال في كل مكان وزمان، ثم يقرنه بالسفياني الأهلي، وكأنه يربط بين نوعين من الغطرسة ومصادرة الحقوق، وترك آثار الدمار والتخريب على الأرض والعباد، إنهما الاحتلال الخارجي متمثلا بامريكا وحلفائها والاحتلال الداخلي متمثلا بالسلطة الفاسدة. إذ يقول:

((الشمرُ الأمريكي.
بعد السفياني الأهلي،
يزني في كربلاء
والغزاة يحكمون اليشن!!))[17].

هنا تتجلى ملامح الهوية الوطنية بأبهى صورها حين يدعو إلى مواجهة الاحتلال مثلما كان يواجه السلطة الفاسدة، هو يوجه نداءه إلى شعبه ويدعوهم للمقاومة بأشكالها المختلفة، بالكلمة وبالمعرفة وبالفن والأدب، فضلا عن المقاومة العسكرية، إذ يقول:

((يا شعبَ اليشن،
طوبى لمن خرج من داره اليوم.
مسلحا بالكلمة،
متدرعا بالسؤال،
مقترنا بهيبة الفن،
ومنذورا لمصائر الشجعان. طوبى لمن يخرج للشمر الأمريكي،
كما خرج أجداده للسفياني الوطني، شاهرا مرديّه السومري))[18].

الهوية المحلية

من المآخذ على الحكومات التي انبثقت بعد إعلان الدولة العراقية في العام 1921، هي تغييب الهويات المحلية للمجتمع العراقي وتغليب الهوية القومية العربية على الهويات

الأخرى، وهذا أدى بدوره إلى تعصب الهويات المحلية، لكونها هويات مضطهدة منها ومنفية عن واقع المجتمع، ومنها الهويات الاثنية الكردية والتركمانية، فضلا عن الهويات الطائفية الأخرى، بينما تمثل هذه الهويات مجتمعة، لو تم التعامل معها كحقيقة لها وجود ومعنى، عنصر قوة للهوية الوطنية الجامعة، ولا يعني الاصطفاف خلف الهويات المحلية انسلاخا من الهوية الوطنية، بل هي هوية ثقافية وشخصية للأفراد تربطهم بهويتهم الوطنية، وهذا ما تظهره سرديات (اللامي) للهوية المحلية.

لقد اعتمد (اللامي) في سردياته على تبني العناصر والثيمات المحلية والتي منها: (المكان (البيئة)، والتراث الحضاري، والأسطورة المحلية، وسلوكيات المجتمع، واللغة).

ويمثّل الاهتمام بالمكان ((ملمحا رئيسيا من ملامح آداب ما بعد الكولونيالية؛ وهو ما يعني ظهور أزمة خاصة ما بعد كولونيالية تتعلق بالهوية والاهتمام بتطوير أو استعادة علاقة فعالة بين الذات والمكان لتحديد الهوية))[19]، وهذا يقودنا لتعريف المكان "الأنثروبولوجي وهو المكان الذي يوفر الهوية الثقافية والذاكرة، والذي يربط سكانه بتاريخه من الناحية المحلية من خلال ((عمليات التكرار اليومية للتفاعل الاجتماعي "العضوي"))[20]. ومن خلال ذلك فإن لخصوصية المكان وخطورة تحدياته، وتوتر عناصره بالنسبة للعرب، أهمية كبرى، وحالة تدعو إلى التأمل الدقيق فيها وإدراك طبيعتها وتفردها الصعب الذي يمثّل استثناء مكانيا بين الأمكنة[21]، وهذا يعني ((إن كل ما يجتافه المرء من قيم أخلاقية، وما يتمثله من أعراف اجتماعية، وما يضمره من تصورات فكرية، وما يعكسه من مواقف سياسية، ما هي إلاّ حصيلة إجمالية لتفاعل علاقاته وتواصل اهتماماته، مع نمط البيئة الايكولوجية / المكانية))[22]، فالمكان يفرض، لغةً، وطقوسا، وشعائرَ فضلا عن أوهام وحقائق عن التاريخ والجغرافيا وأساطير الأمة[23]، على هذا التصور يبني (اللامي) سرده عن المكان الذي وُلد فيه ونشأ، ونمت في عروقه تقاليد وعادات وطقوس، حتى أصبحت جزءا من ثقافته وفكره وشخصيته.

تناول (اللامي) الفضاء المكاني من مجاله الواسع الجغرافي والتاريخي والحضاري من خلال قصة (اليشن)[24]، وهي قريبة من مملكة ميسان التاريخية[25]، وهذا ما صرّح به (اللامي) عندما قال:((أما قصة اليشن، فهي سيرة شخصية لمدينة اخترعتها، ووضعتها على خريطة الجغرافيا العراقية، قرب مدينة العمارة الجنوبية، وضمن منطقة "ميسان" التاريخية))[26]، فصوّر (اللامي) في قصة "اليشن" وطنا مصغرا، لا يعرف كيف يُدار

ولكنه يركز على طريقة غزوه من قبائل بربرية، عاثت في الحرث والنسل فسادا، ولكنه حذّر من موت الجواد الذي مثل أنموذجا للمقاومة.

((في عام من أعوام القحط أغارت إحدى القبائل البربرية على مدينة اليشن، فقتلت من الناس كثيرا ورمتهم في المستنقعات القريبة من نهاية الصحراء. .....

إنه ذلك الرجل المعروف في المدينة، الذي طعن في قلبه كثيرا، لم يستسلم ليموت، وعندما يأخذه الجلاد ليدفن مع أبناء شعبه الآخرين في صحراء المدينة، يقوم من موته ويركض في الصحراء، فيصاب الجلاد بمرض خبيث في عقله ويهيم في الصحراء على وجهه ويبدأ بالتحجر ابتداءً من أخمص قدميه))[27].

في (الصحيفة الميسانية) يصرّح فيها باسم ميسان بشكل واضح، في هذا الفضاء تتمازج الديانات مثلما تتمازج الحضارات، إذ تظهر الديانة الصابئية المندائية بأعرافها وتقاليدها، متواشجة مع الديانة الإسلامية، لتكون واحدة من ميزات الهوية المحلية للمدينة، كما هي ميزة أرض العراق التي تحتضن الأديان والأثنيات على نحو عام.

((قال الراوي : وفي هذا العام, عام السمك الكثير، وعام الشلب الوفير، بعد صلاة العصر بساعة، وقبل أن تأزف صلاة المغرب، وعندما كنا نستقبل ليلة النصف من شعبان، جاء القوم من حرّان وبابل وفلسطين وجبال ميديا وحافات الأهوار في ميسان، يرتدون دشاديش بيضا، حاسري الرؤوس، حفاة الأقدام، وجلسوا في خيمتهم عند الضفة اليمنى من نهر الكرخة))[28].

هذا التعدد في الأقوام يبين أن هذه المدينة المتسامحة تعني خصوصية في الهوية العراقية المتسامحة، أو هكذا يفترض أن تسعى إليه الهوية العراقية، ولم يتوقف ذكر ووصف ميسان (المكان) على المدينة فقط، بل لقد ذكر اللامي حاراتها (الماجدية)، كما ذكر نواحيها واقضيتها وقد كان دقيقا في وصفها، من بيوت وأطعمة وأسواق و حيوانات، إلى وصف المعيشة، كل هذه من أجزاء الهوية الثقافية المحلية حتى ينتهي بوصفه إلى ذكر المقابر في تلك المدن، ولعل ذلك يتجلى بذكر مدينة (ديرة حلم العمر)، وفيها يصف المكان على نحو تفصيلي ليبين ان المكان يمثل هوية في تشكيلته وبنيته:

((كانت ديرة حلم العمر مكشوفة أمام عزيز الموسوي: امتداد مقوس بمسافة خمسمائة متر تقريبا يتدرج في الارتفاع. ثمة حوانيت مبنية من قصب وتنك وبردي وطين، تعرض واجهاتها للشمس والريح، أواني مليئة بالدقيق والذرة والهرطمان والرز ثم

دكانان: .....، بعد صف الدكاكين مباشرة، يقوم صفان من البيوت الواحد يعلو الآخر، لم يستطيع عزيز أن يميز أبوابها من نوافذها، جال شيء في خاطره، هذه ثقوب وتجويفات نحتت في صخور التلة. وكان ثمة أطفال يلعبون أمام بعض تلك الثقوب والتجويفات، أطفال عراة، بينما نساء اتشحن بأغطية سود يتحركن، كما الأشباح، بين ثقب وتجويف ..... وأمامه مباشرة كان البناء المكعب لمرقد الإمام سيد نور يبدو شامخا: بناء مطلي بالجير وقبة اعتلاها علم صغير، أحمر اللون، على سارية من جريد النخيل))[29].

في وجهة نظر المكانية نجد صورة للهوية الثقافية المحلية بظهور صور المقامات والأضرحة لرجال صالحين يعود نسبهم إلى الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي من المظاهر الثقافية الروحية المهمة في هوية الجنوب المحلية، كما أنها تمثل جزءا مهما من الهوية الثقافية العراقية لأن الظلم والاقصاء يجعل الإنسان المظلوم يلجأ إلى المتعالي الذي يرتبط في وعيه بالقوي الجبار والذي يستطيع من خلاله ردّ الظلم والطغيان، و(اللامي) يعمد إلى الصورة الواقعية في رسم معالم المكان وأهله.

((في ذلك اليوم، حيث الشمس الحارقة، أدمنت مراقبة الحمالين وعمال العربات وصيادي الأسماك، والأطفال الحفاة، والنساء المقهورات حين يلتمع النصل ويدرع بطن إحداهن بعد همس في "الديوانية" أن كل شيء يتشكل في هذا الواقع غير المتكافئ .. هذا الواقع الذي يمثله الشرطي الخيال وتاجر السمك وعامل الحدادة في محلة الماجدية))[30].

ثم يبيّن الإرث الثقافي والديني للمدينة، ليشكّل ذاكرة متقدة تقف سدا منيعا ضد تيارات الزمن وآفة النسيان .

((أما بالقرب من عتمة الأرباض الشفيفة, بين شارع المعارف, والمعبد اليهودي, قرب الكنيسة القديمة, فقد كانت جسوم الإبل تطلق تلك الرائحة التي يكاد حادي العيس يلمسها بأصابع قلبه))[31].

تعد الأساطير التاريخية أيضا شكلا من هويات الشعوب البدائية الثقافية وهذا ما كان في وعي الشخصية الروائية عن حكاية السعلاة والشياطين والعفاريت ..الخ.

((وطفق يروي حكايته في هور "الحويزة" مع "السعلاة" التي انقلبت معزاة، تنط أمامه تارة وتتوقف تارة أخرى، فمكر بها -كما زعم- ولما هم أن يضربها بقامته عفطت عليه وتحولت إلى كرة من خيوط الصوف تراكضت أمامه))[32].

ومن صور الهوية المحلية، اللهجة التي ظهرت في الفن الشعبي الريفي الجنوبي بما يتصف به من حنين، وحزن وكأنه يصف مشكلة الإنسان الجنوبي إزاء وجوده وتجربته في الحياة.

((ثم انكسر الصمت فجأة في مقهى ديرة حلم العمر، عندما أخذ صوت ملتاع يتهدج بأغنية حزينة، أغنية طالما استمع إليها عزيز الموسوي في كل السجون التي استقبلته:

مسموعة ونّة الليل،

يا روحي هيدي.

بَسّ البجه والنوح،

صاير نَصيبي ..))[33].

إن ظاهرة الحزن أيضا من سمات الهوية لما تعرض له الفلاح، والمجتمع من ظلم سياسي، وديني، واقتصادي بفضل الإقطاع الهمجي الذي دمرَّ حياة الإنسان، ومارس عليه أبشع صنوف التعذيب، ففي الجنوب ثمة حكايات تاريخية من الإقصاء والظلم وقديما كانت ثورة الزنج ابرز مثال للثورة المجتمعية الرافضة للظلم، وهكذا استمرت المقاومة فشكّلت ثقافة الحزن، والمقاومة هوية، إن الهوية المحلية عند اللامي لا تعني ابتعادا عن الهوية الوطنية والهوية القومية والإسلامية، إنما هي جذر ممتد في الأرض يعطي قوة وثباتا للهوية الأم.

الهوية القومية

تعد القومية نزعة وحدويّة تتمحور حول مشتركات من اللغة الواحدة، والأصول العرقية الواحدة، والتاريخ الواحد، والثقافة الواحدة، وهي محور جذب للمجتمعات التي تتسم بتلك المشتركات، يقول (اندرسن): ((وإنه لما يجعل الأمور أسهل، في اعتقادي، أن تتعامل مع القومية على انها من قبيل "القرابة" و"الدين" وليس "اللبرالية" أو "الفاشية"))[34] وعلى ذلك يضع إندرسن لها تعريفا، فيقول: ((القومية ليست جماعة صغيرة يعرف الفرد أفرادها شخصيا، أو يعتقد أنه يعرفهم كامتداد لشيء يعرفه بموجب قرابة الدم مثلا كما يفترض بالجماعة العائلة الممتدة والقبيلة أو الحارة، القومية هي إذا جماعة متخيلة،

يتصورها المرء فينتمي إلى الآلاف والملايين من الناس المنتمين إليها أيضا من دون أن يعرفهم أو يرتبط بهم برابطة طبيعية، ولكن قادر على تخيل رباط كهذا، وكونها متخيلة لا يقلل من انتمائه لها، بل بالعكس ربما تضطره التخيل، أو تضطره ضرورة التخيل إلى تقوية وشحذ هذا الانتماء بخيال أرفع وبوسائل أرقى))[35].

في حين ينظر للهوية القومية في ما بعد الحداثة على أنها إيديولوجيا عنصرية وإرادة هيمنة فقد كان اختراع النزعة القومية، وهويتها ((كشكل هوياتي مسيطر، وهذا يؤدي إلى الإنكار المطلق للآخر وإلى محاولة إخضاع الآخرين جميعا بفضل عقلنة منهجية))[36]. مع ان (هارلمبس وهولبورن) يرونها شكلا من اشكال الوعي الأسطوري والخرافي[37]، ولهذا كانت هيمنة القوميات الكبرى على ثقافة القوميات الصغرى، في أرض معينة لا يمثل حالة صحية، إنما يمثل اختلالا في المثل العليا للثقافات التي تحاول أن تحافظ على النسيج المجتمعي، وهذا ما يذهب إليه (سميث) ((بأن الثقافات القومية تظل بعناد "محددة ومقيدة بالزمن, ومُعبِّرة "، وهو يعني بهذا أن البناء المتعمّد للهوية القومية كان بالضرورة متطفلا على المعاني الأعمق للهوية الجماعية، التي يتشارك فيها الناس الذين يوجدون في موقع بعينه، والتي تتضمن" المشاعر والقيم الخاصة بمفهوم الاستمرارية، والذكريات المشتركة، وبمعنى خاص بالمصير المشترك))[38].

قد تمتع الشعب العراقي بالتنوع الديني والأثني، فالقوميات في العراق هي العربية وهي الأكبر، وهناك قوميات أخرى مثل القومية الكردية والتركمانية والأشورية الكلدانية وغيرها، وكان الفكر القومي جزءا من الهوية العراقية عند العرب لأن هذا الجنس أو العرق له تاريخ يمتد طويلا في عمق التجربة الحضارية لهذا البلد، وله تقاليده وعاداته، وثقافته، ومن ثم فإن الفكر القومي شكّل الأساس في بناء الدولة الوطنية العراقية منذ 1921 ولاسيما في اختيار الملك فيصل الأول، فقد كان اختيارا دينيا وقوميا ارتضاه العراقيون على نحو عام، ولكن دخل الفكر القومي سريعا في صراع الهويات العراقية الأخرى، لرغبته في السيادة والقيادة لهذا بدا ان الصراع في الهوية القومية في اطار الاعتزاز بالعروبة وثقافتها، مقابل هذا التوجه وجود هويات أثنية أخرى تريد اعترافا بها هي الأخرى، وتتجلى هذه في اشكال الوعي التي ظهرت في التجربة الاجتماعية والسياسية العراقية.

((كان عزيز لم يتجاوز السادسة عشرة، عندما سمع طلاب الصفوف المتقدمة يتحدثون عن اعتقالات واصطلاحات جديدة: السلام، الوحدة العربية، الاشتراكية، وكان فرحا لأنه الثاني في ترديد الهتاف))[39].

تبنى (عزيز) الشعور الأول بالهوية العربية التي لم تخضع بعد لهيمنة الإيديولجية أو التنظيمات السياسية، فهو حب فطري يتشارك به أبناء الوطن من العرب اعتمادا على مقومات مشتركة وذاكرة تاريخية كبيرة. وقدّم العراقي التضحيات من أجل القضايا القومية، ومنها قضية فلسطين التي أصبحت هوية النضال في الحياة العربية، وكانت هذه القضية جزءا من سرديات اللامي الذي عاش تجربة العمل الفدائي.

((ينتمي حمدون القصار إلى عائلة عربية من تقاليدها – الفتوة – تطوع في الجيش، جنديا في أوائل الأربعينيات من القرن العشرين، وعرفه الناس شابا شهما وذا خصال كريمة.. ثم استقال من الجيش في منتصف الاربعينيات وقام بتأليف فصيلة من شباب الحارة وذهب إلى فلسطين عام 1948 واشترك في الحرب المعروفة آنئذ))[40].

ثم يرجع في القصة نفسها ليرسم لنا دور الأنظمة الفاسدة في التخاذل والخيانة في قضية العرب الكبرى (فلسطين)، وهي سمة في الهوية الثقافية التي طالما رددها المواطن العربي الذي كان يعاني من هزيمة هذه الأنظمة التي أثرت على وجوده، وهويته وتاريخه ومستقبله.

((ثم سمعت صوت حمدون القصار يقول: يا أهل الماجدية.. لم تكن تلك حربنا..... وسمعت حمدون القصار يخاطبنا: لم نخسر حربا على الاطلاق.. الذين سيخسرون هم أعداؤنا، ثم أكد. الذين ترونهم معي هم عصبة الحرب الحقيقية، وسنخوضها حربا حقيقية.. وتناولوا القهوة العربية معنا مرة اخرى))[41].

في الخمسينيات من القرن الماضي برز التيار القومي في العراق، كما هو في بقية الدول العربية ومنها مصر، بشعاراته المعروفة في الوحدة العربية، وقد التفت حول هذه الشعارات الجماهير العربية، والتي كانت تشعر بالمهانة من نكسة فلسطين، وضياعها أمام المدد الصهيوني في المنطقة:

((يا أبناء شعبنا العظيم.. أيتها الجماهير العربية. قال عزيز الموسوي لجاره: لقد فشلت المؤامرة حتما. وأعلن الرجل فعلا فشل المؤامرة.

ضج المطعم بالأصوات، واختلطت الأجساد بالأجساد، وازدحم المكان بوجوه كثيرة، ولهجات عربية متعددة. كان ثمة فلسطينيون وإريتريون وصوماليون ويمنيون ومغاربة، وسودانيون ومصريون وتوانسة، وكويتيون وجزائريون وليبيون وبحارنه، هل تجمعت الأمة في هذا المكان الصغير))[42].

إن هذا الانتماء إلى الآلاف والملايين من الناس من دون معرفتهم أو الارتباط بهم بروابط طبيعية، يكشف عن الهوية القومية، وهذه الهوية لا يقلل من قيمتها الفكر الأسطوري أو الغيبي، إنما هي آصرة، وهوية شغلت الثقافة العربية، والوجود بإبعاده المختلفة، بل العكس فربما كان التخيل ضرورة في تقوية وشحذ هذا الانتماء بخيال أرفع وبوسائل أرقى[43]، لذلك كان جانبا من الانتماء للهوية العربية يأتي بدوافع عاطفية تقف خلفها ذاكرة تاريخية متمثلة بحقب زمنية مزدهرة، فضلا عن مشتركات في اللغة والدين والتاريخ والمقدسات، كذلك كان الانتماء للهوية العربية بوصفها هوية سياسية وثقافية جعل منها وسيلة، للحركات القومية، وهدفا لجمع أبناء الأمة في إطار ثقافي واجتماعي وسياسي في محاولة لبناء كيان سياسي موحد، وهي أمنيات لم تتحقق في التجربة العربية، وكشفت هذه التجربة ضعفها، وهزيمتها في تحول أنظمتها إلى أنظمة دكتاتورية[44].

من زاوية أخرى، يظهر لنا النص وفي اطار الصراع مع الهوية القومية، والفكر القومي، كان اليسار الشيوعي يسعى إلى الفكرة الأممية، وهذا الصراع كان محتدما وعنيفا.

((نظر عزيز الموسوي إلى زبائن المطعم، كانوا من جنسيات عربية متعددة. ولم يكن يعرف أي واحد منهم باسمه، على رغم شعوره بانتسابه إليهم))[45].

أما القوميات الأخرى التي تشكل الكيان العراقي، على الرغم من محدودية تناولها في سرديات(اللامي) إلا أنها أفرزت صورة ما عن الهويات القومية في العراق، وهذا ما يتجلى بصور ثلاث: الصورة الأولى، فرض هيمنة القومية العربية على القوميات الأخرى في العراق، وإجبارها على الذوبان في الهوية العربية الشاملة، وفي سبيل ذلك حصلت حروب داخلية، طول تاريخ العراق الحديث، فضلا عما تعرضت له من إبادة جماعية من النظام القومي الشمولي، ويتضح ذلك من خلال سلبهم حقوقهم في قوميتهم الأصلية، مستخدمين الإشاعات و(السخرية) من العنصر غير العربي، كذلك إلصاق الوظائف

الدونية في المجتمع لهم، وإظهارهم على أنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ويجب تمثيلهم فهم يقلدون الآخرين فقط، إذ تقول سافرة:

((ثم استدارت نحو الجثث, وحدجتها بنظرة متوقدة وصرخت بصوت عالٍ: الموت للجواسيس، الموت للخونة.

وصاح صبي كردي من ماسحي الأحذية مقلدا صوتها الرقيق: تعيش الثورة))[46].

أما الصورة الثانية: فتمثلت في أصالة هذه القوميات وتفاعلها في المجتمع ودورها في بناء الوطن، فما تملكه من مشاعر وقيم ومصير مشترك، يؤهلها أن تكون حاضرة في المشهد العراقي وتفاعلاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كمكون أصيل وفاعل في المجتمع، وهم كباقي طوائف المجتمع كانوا ينتمون لحركات سياسية واجتماعية، وقد تعرضوا للاعتقال والاضطهاد من السلطات.

((وقد عارضها شيوخ الأثوريين في الحي الثاني من حارة العرب حيث "الأندلس" هناك، على طيبتها وثقتها بإبراهيم وأخبروها بأن ابناءهم المسجونين في "تقرة السلمان" أعلموهم بلقاءات ابراهيم العربي بالشيطان الأزرق الذي كان يعوي خلف سور السجن كل ليلة. وكانت العجوز ماجي تكذبهم دوما))[47].

أما الصورة الثالثة: التي تتجسد في حالة القلق وعدم الثقة التي تكونت عند القوميات الأخرى في العراق فقد تنامت بسبب السياسات القصرية للنظام ومحاولة أبعادهم عن المشهد العراقي، وهذا الخوف والقلق وجد مداه الأوسع خاصة بعد 2003، وهيمنة الفكر المتطرف والإرهابي في العراق، مما أدى إلى هجرة الأغلبية من القوميات والديانات الصغيرة في العراق، وهذا الأمر من العنف شكّل نسقا في الهوية العراقية منذ القدم، وهذا ما يتجسد في مشهد الدعاء في أماكن دينية مهجورة:

((بعد سنتين على زواجي كان رحمي فارغا, فذهبت إلى "العذراء" في كنيسة الاثوريين المهجورة, ..))[48].

(أم سافرة)، وهي من الديانة المسيحية تعبر عن قلقها من هجرة أبناء جلدتها من خلال تصوير الكنيسة وهي فارغة من روادها، على الرغم من أنها تشكل دار عبادة واجتماع للديانة المسيحية.

من هنا يمكن أن نقول:((أن الجماعات ليست أمكنة بل ممارسة هويات جمعية يسهم نظامها المتغير إسهاما واسعا في تعريف ثقافة أيّة تشكيلة اجتماعية قائمة))[49]، وعلى هذا الأساس يمكن للجماعات أن تكون كونية بقدر ما يمكنها أن تكون محلية.

ولعل (اللامي) من الكتّاب الذين طرحوا مشاريع ثقافية بديلة للهويات بكل كيفياتها وأنواعها واشكالياتها بهوية واحدة، وهي الهوية الإنسانية أو الكونية، كما طرحها (إدوارد سعيد) في كتابه (الأنسنة والنقد الديمقراطي) إذ يرى أن الثقافات تتفاعل وتتشارك بدلا من أن تتصارع، ولذلك طرح مشروع الهوية الكونية، فالكونية كما عبر عنها هي أن تكون ابنا للكون والعالم بالمعنى السياسي والإنساني والأخلاقي والثقافي، مع وجود الارتباطات الأخرى والتي يجب أن تكون متعايشة مع بعضها، لذلك اتجه (إدوارد سعيد) للبحث عن التاريخ المشترك للأمم، وطرح مفهوما للمثقف الكوني إذ ركز اهتمام (سعيد) على دراسة الحركة الأنسنة، والممارسة النقدية، استنادا إلى قناعته بأن الأنسنة مذهب نقدي يوجه سهامه إلى الأوضاع السائدة داخل المجتمع، وهو مذهب يستمد قواه وقيمه من طابعه الديمقراطي العلمانى المنفتح، وهو الموقف الذي لا تتبناه الهويات المتعصبة التي ترى ذاتها متعالية، ونخبوية[50].

وقد اتجه (جمعة اللامي) إلى الكونية من خلال المحلية، وتجلياتها الإنسانية، ويطرح جدليته تلك من خلال شخصيات عالمية أحيانا يلبسها رداء الواقع المحلي، ويدخلها في خضم إشكاليات تكوينية متعددة ثم يطهرها من ادران الانتماء الضيق ليعلن مرجعيتها الكونية.

إن التسامح والتعايش السلمي صفة للعراقيين بشكل عام في اطار عام مؤسسي وقانوني، إذ تتآلف طوائف المجتمع الدينية فيما بينها وتمارس دورها في الحياة بعيدا عن التعصب:

((وتوقف عند جدار شاهق ذي لون أبيض، ثُبّتت في وسطه زجاجة نورانية ضخمة، يتوسطها رسم لأبي علي الأبجر وعن يمينه وشماله جلس الميرزا زيارة وعجيل الحمّامجي وروبين اليهودي وشايع وحسن الصبّي وعيسى سرسم النصراني، وأمامهم مائدة طعام من كل ما لذّ وطاب تفوح رائحتها الزكية ....))[51].

وهذا ما يتضح بشكل جلي في لقب "الحجي" الذي أطلقه أهل مدينة العمارة على الدكتور اليهودي، وهو ما يعني أن الإنسان لا يُقيّم من خلال هويته الدينية إنما من خلال عمله

ودوره في خدمة المجتمع بكل تنوعاته، وهذا ليس بغريب عن فطرة الإنسان فضلا عن تعاليم الأديان السماوية وفي مقدمتها الدين الإسلامي:

((لم يكن أحد في مدينة العمارة يستغرب لقب : " الحجّي "، الذي يبدو أن الطبيب كباي كان سعيدا به. كما أن زواره من قبائل بني لام والبومحمد والسواعد والسودان والبيضان والبودرّاري وكعب والسرّاي، وحتى عوائل النيادة المهاجرين إلى طرفنا من نجد، كانوا يقولون لبعضهم البعض، إن هذا الطبيب يده مبروكة، وإن غيابه عن مدينة العمارة في أوقات فجائية في فصلي الشتاء والربيع، إنما هو فرصة، يمضيها داود كبّاي الذي يعود أصله إلى النبي العُزَير، في مجاورة مشهد "غريب طوس" في مدينة مشهد بخراسان))[52].

إن الهوية الإنسانية متأصلة في نفس البشرية مهما تنوعت أعراقها وانتماءاتها الدينية والسياسية والاجتماعية، لا الهويات المتعصبة المتشبثة بتاريخ متخيّل، وذات متوهمّة، وسرديات مختلفة، فقد سببت نتائج مدمرة للبشرية، كما هو حال النازية والفاشية.

إن الفكر الإنساني لا يؤمن بالحدود المصطنعة، إذ أن الافتراض الأساسي في نظرية الثقافة هو، إن الحياة تكون مع الناس[53]. مثلما لا يؤمن بالهوية الواحدة التي كانت سببا في كثير من الحروب والمأسي على الشعوب من تشريد وتهجير وتمييز، إذ لم يكن للإنسان اختيار لهوية ما في اغلب الأحيان، بمجرد ولادته ستحدد هويته الدينية والوطنية والعرقية وغيرها، في حين البشر جميعهم يعودون لأصل واحد، لا فرق بينهم، وهذا ما يتضح في الحوار الآتي:

(("حسنا، يا أبا جبيبل، هل أنت سعيد بيننا؟". يرد بابو بهزة رقيقة من رقبته السمراء، ويبدأ بحديث سريع، أفهم منه أنه بنى بيتا، وأرسل أمه إلى الحج حسب دينه، وساعد أخاه الأكبر على توسيع بقالته. ثم ينهي حديثه بابتسامته العريضة.

أقول له:" كُلّنا عيال الله. الله واحد ".

"ليشْ الأوادم يُفرّقون بيت الأوادم، أرباب؟" . سألني بابو السيخي. كان يصف حالتنا نحن أبناء اليشن من الماء إلى الصحراء.

ولا يزال صوت كلمات بابو البجلوري، يتردد في جنبات العرصة:

" ليش الأوادِم يُفَرّقون بين الأوادِم "))[54]

إن التعايش السلمي بين أبناء البشر، ونشر المحبة بينهم، يمثّل هوية الإنسان وتجاربه الدينية، والاجتماعية، وهي فطرة فيه، أما الجزئيات التي يتميز بها الأفراد عن بعضهم فهي خصوصيات لا يجب أن تعمم أو تفرض على الآخرين، ويجب احترامها وعدم تهميشها أو إقصائها، ولذلك يطلق سؤاله الاستنكاري، إذ الجميع يرجعون إلى آدم.

الخاتمة

إن لكل فرد انتماءً يعتبر رئيسيا، بوصفه يحتل مكانة في هذه الجماعة أو تلك، لذا تُعرّف الهُويّة بانتماء كل فرد إلى عائلته، طائفته، وطنه، الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها بنو جلدته، كوجود سابق عن وجوده. لذلك ينشط الفرد خلف هُويّته المحلية والوطنية والقومية، وهذا يحصل داخل الانتظام الاجتماعي بين التخيلي والواقعي.

شكّلت الهُويّة الجمعية قيمة مهمة في سرديات (اللامي)، إذ انطلقت من شعور الانتماء إلى أرومة عربية بملامح عراقية جنوبية تمتلك تاريخا وحضارة تمتد بامتداد الزمن، الأمر الذي منحها ارتباطا أصيلا بالوطن (العراق)، والوطن الأصغر (ميسان)، والوطن الأكبر (الوطن العربي)، إذ لم يكن هذا التحديد في سردياته بابا للانغلاق والتقوقع على ذاته إنما كان يمثل له دافعا للانفتاح على الهويات الأخرى ودعوة للتعايش السلمي بين البشر.إذ قدّم لنا (اللامي) انموذجا حداثيا في الانتماء للهُويّةعندما اتجه إلى الكونية من خلال المحلية، وتجلياتها الإنسانية، ويطرح جدليته تلك من خلال شخصيات عالمية أحيانا يلبسها رداء الواقع المحلي، ويدخلها في خضم إشكاليات تكوينية متعددة ثم يطهرها من ادران الانتماء الضيق ليعلن مرجعيتها الكونية. وهو بذلك يؤشر على فشل الأنظمة السياسية التي تعاقبت على الحكم في العراق أو الدول العربية من تأسيس هوية جامعة تستطيع المحافظة على حقوق الهُويّات الفرعية (المحلية)، بوصف هذا التنوع عنصر قوة للأمم والشعوب.

الهوامش

(1) أزمة الهويات، تفسير تحول، كلود دوبار، ترجمة: رندة بعث، المكتبة الشرقية، ط1، ص21.

(2)ينظر:الجماعات المتخيَّلة، تأملات في أصل القومية وانتشارها، بندكتإندرسن، ترجمة: ثائر ديب، تقديم: عزمي بشارة، قدس للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص27.

(3) Les Sources de moi, la formation de l'identitemodrene, Charles Taylor, Traduit de l'anglais par Charlotte Melancon, Paris Seuil, 1998, p. 87 .

(4) ينظر: أزمة الهويات، تفسير تحول، كلود دوبار، ترجمة: رندة بعث، ص57-58.

(5) ينظر: الهويّة والأمة في العراق، شيركو كرمانج، ترجمة: عوف عبد الرحمن عبد الله، دار الساقي، دار آراس للطباعة والنشر، ط1، 2015، ص27.

(6)الأعمال الروائية، الثلاثية الأولى، جمعة اللامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، الأردن 2004، ص45.

(7)عيون زينب، جمعة اللامي، دار كنعان، طبعة خاصة، دمشق،2010 ، ص 105 .

(8) عيون زينب، ص105 .

(9) الأعمال الروائية، الثلاثية الأولى، ص98.

(10) عيون زينب، ص72.

(11)المصدر نفسه، ص76.

(12)المصدر نفسه، ص73.

(13) اليشنيّون، حكاية فليفلة والسروط، تاريخ العار في بلاد النِّفطار برواية سلطان الخالدي الشهير بـــ"نزيل الجلالي،جمعة اللامي، المركز العربي للدراسات والنشر، 2016، ص69-70.

(14)المصدر نفسه، مقامة:57، هجائية 9نيسان2003، ص77.

(15)اليشنيّون، حكاية فليفلة والسروط، تاريخ العار في بلاد النِّفطار برواية سلطان الخالدي الشهير بـــ"نزيل الجلالي، مقامة:57، هجائية 9نيسان2003،ص77.

(16) المصدر نفسه، ص77-78.

(17) عيون زينب، ص97.

(18)المصدر نفسه، ص98.

(19) الرد بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، بيل أشكروفت، غاريثغرفيت، هيلين تيفسن، ترجمة: د. شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2006 ، ص27.

(20) العولمة والثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان، د. جون توملينسون، ترجمة: د. إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص149.

(21) ينظر: تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية: مدخل إلى إعادة فهم الواقع العربي، د. محمد جابر الأنصاري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000، ط3، ص30.

(22) الهوية الملتبسة، الشخصية العراقية وإشكالية الوعي بالذات، ثامر عباس،الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2012، ص219.

(23) ينظر: أحادية لغة الآخر أو ترميم الأصول، جاك دريدا، ترجمة: عزيز توما وإبراهيم محمود، دمشق، دار الحوار، 2009، ص136.

(24) "اليشن" تعني "التلال" باللغة السومرية،وربما اردت دولة ميسان التاريخية، وحول مدينة "العمارة " يشنٌ عدة منها: "تل أبو شمخي" و"تل فرح وسوزه" و"تل المدينة" و"السيد سفيح" و"تل أبو ذهب" و"تل سبيجة" وغيرها ...وغيرها، ذكرها اللامي في إشارات في الأعمال القصصية، ص269.

(25) سكن في ميسان أقوام عديدون من بينهم السومريون والعيلاميونوالمندائيون واليهود والعرب. واستوطن فيا أناس من ايران وشبه الجزيرة العربية والهند والكرد الفيلية. وعدت مثابة لأفكار العدالة المثالية في العصور القديمة، كما في الأزمنة الجديدة.ينظر:عيون زينب، جمعة اللامي، إشارات، ص121.

(26)الأعمال القصصية، إشارات،جمعة اللامي، المؤسسة العربية للدراسات، ط1، الأردن 2004، ص269.

(27)الأعمال القصصية، اليشن،ص110.

(28) الأعمال الروائية، مجنون زينب، الصحيفة الميسانية، ص379.

(29) الأعمال الروائية، الثلاثية الأولى، ص37-38.

(30)المصدر نفسه، ص95.

(31) عيون زينب، 82.

(32) الأعمال القصصية، الثلاثية الثالثة، ص234.

(33)الأعمال الروائية، الثلاثية الأولى ، ص60.

(34)الجماعات المتخيلة،تأملات في أصل القومية وانتشارها، بندكتإندرسن، ترجمة: ثائر ديب، ص26.

(35) المصدر نفسه، ص28.

(36) ينظر:أزمة الهويات، تفسير تحول، كلود دوبار، ترجمة: رندة بعث، ص56.

(37)ينظر: سوشيولوجيا الثقافة والهوية، هارلمبسوهولبورن،ترجمة: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2010،ص100.

(38) العولمة والثقافة،تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان، د. جون توملينسون، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم محمد، ص139.

(39) الأعمال الروائية، الثلاثية الأولى، ص65.

(40) الأعمال القصصية، حمدون القصار، ص179.

(41)الأعمال القصصية، حمدون القصار،ص180.

(42) الأعمال الروائية، الثلاثية الأولى، ص41-42.

(43) ينظر: الجماعات المتخيلة تأملات في أصل القومية وانتشارها، بندكت أندرسن، ترجمة: ثائر ديب، تقديم: عزمي بشارة، ص28.

(44) ينظر: مذكرات دولة، السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق الحديث، إريك دافيس، ترجمة: حاتم عبدالهادي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2008، ص33.

(45) الأعمال الروائية، الثلاثية الأولى، ص46.

(46) الأعمال الروائية، الثلاثية الأولى، ص92.

(47) الأعمال القصصية، ابراهيم العربي، ص100.

(48) الأعمال الروائية،الثلاثية الأولى، ص92.

(49) فكرة الثقافة، تيري إيجلتون، ترجمة: ثائر ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع، 2000، ص165.

(50) ينظر: الأنسنة والنقد الديمقراطي، ادوارد سعيد ، ترجمة فؤاد طرابلسي، دار الاداب بيروت، الطبعة الاولى، 2005، ص 18-32.

(51) من قتل حكمة الشامي، احوال أبو علي الأبجر وما رآه شايع الشرقي في دكان روبين اليهودي، ص20.

(52) اليشنيّون، حكاية فليفلة والسروط، حفريات شخصية فليفلة والسروط: قصة حب ميسانية، ص14.

(53) ينظر: نظريّة الثقافة، مجموعة من الكتاب، ترجمة: د. علي سيّد الصاوي، مراجعة وتقديم: أ.د. الفاروق زكي يونس، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت،1997، ص176.

(54) اليشنيّون، حكاية فليفلة والسروط، مقامات السَّنسول، البجلوري، ص169.

The Collective Identity of Juma'a AL-Lami`s Narrating

A Research Taken from : M.A Message Called :

Identity in Juma Al- lami s Narrations

-As A Study In The Light Of Cultural Analysis-

Ihsan J. Shibeeb

Professor Dr. Hussein Hamza Aljuboory

ABSTRACT

The identity – as a commonterm – is the mould of the collective conscience with what it includes from values, habits and factors that adapt the people`s awareness and their will of existence. It is the privateness and selfness at the same time.It is the culture of the individual, his language, his beleif, his civilization and his history.

So the identity is considered the result of a set of relationships and tokens that individual takes from it the meaning of his value. He also puts for himself according to its consideration a system that form its identity.

As a result it is provided with the possibility to limit himself inside the sociocultural community as it is described as a source system in the behaviour standard . The collective identity in Juma`a Al- lami`s narrating exemplified an important value.

Actually this identity appeared in three styles which are : patriotism, locality and nationalism. All these three styles form the sight of humanistic identity.